"من كثرة المظالم يصرخون. يستغيثون من ذراع الأعزاء" (أيوب ٣٥: ٩). الزمان كله تاريخ ظلم من الأعزة على الأذلة، كأن المقهور لا يستطيع لفت القهار اليه لأن القوي ليس في حاجة الى من يكلمه فقد حاز على الدنيا كلها وما عساك تزيد على الدنيا التي له فإن وعى كبره لا يكتمل بأحد. وحده الفقير يتكئ على الفقير لأنهما مسحوقان معا. يتلاقيان في هذا الجزء اليسير الذي يغتصبانه ليستمرا في هذا النزر القليل من الوجود. وقد وضعهما اصحاب الوجود في الظلام.

في اللغة، الظلم وضع الشيء في غير موضعه اي جعله غير مرئي وكأنك ألقيت الظلام عليه. المظلومون يجمعهم هذا الظلام الذي يلغي وجوههم. لهذا بعد ان قتل قايين اخاه هابيل قال الله لقايين اين هابيل اخوك. فقال لا اعلم. أحارس انا لأخي (تكوين ٤: ٩) لنا ان نستبطن آخر الآية هكذا: اذا كان اخي موجودا انا حارسه. ولكنه غير موجود لأني شئت له عدم الوجود. نفس قايين لم تقبل هابيل ذاتا. "فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله" (سورة المائدة ٣٠). علاقة الاول بالثاني علاقة الغاء.

الرؤية اللاهوتية للظلم في استنادها الأساسي على العهد القديم تكشف ان الله لا ظلم فيه وان الأرض بالمقابل امتلأت ظلما. غير ان البار الآتي من كلمة الرب لا يوجد ظلم في يديه ولكن اعداءه يبغضونه ظلما. والمرجو عند الأنبياء الكبار الا يبقى ظلم في الأرض. وتتوالى المترادفات: الظلم، المعصية، الاغتصاب. قبل النهاية يقول سفر الرؤيا: "من يظلم فليظلم بعد" (٢٢: ١١) غير ان هذا كله سيكف بمجيء المسيح في الأخير لأنه "الألف والياء، البداية والنهاية، الاول والآخر". عندئذ يكون سكن الله مع الناس ويكون "كل شيء جديدا".

في كل حقول الوجود ترى الظالمين. ربة المنزل التي تجور على الخادمة، مدير العمل الذي يقسو او يتعسف، الشرطي الذي يسجل مخالفة حيث لا مخالفة، الزوج الأمار لذكورة يعتبرها امتيازا، الحاكم اذا استبد، كل هؤلاء امثلة عادية في التحكم المتشفي في نفوس لا تزهو الا بتطويع الناس. هناك امزجة لا توجد الا بالإذلال او الإقصاء او الإلغاء.

هناك انظمة سياسية قائمة على الإسكات، على المحو وتختفي وراء هاجس الأمن او السلام الأهلي تثبيتا لدوامها. والديمومة، اذا اردتها مبدأ، تقودك الى اهتزاز الآخر او تواريه في صمت هو زي وجوده في المجتمع السياسي.

***

وما قيل في الأفراد يقال في الدول القادرة على التحكم في ظرف زمني محدد. هناك فلسفة ضمنية في الدولة قائمة على الفكر السياسي الآحادي الذي لا يتاخمه فكر آخر او يوازيه او يسائله لأن الفكر الآحادي له نفسيا عند صاحبه قيمة الوحي الذي لا يناقشه بشر. في زمن قيل فيه ان اندثرت الايديولوجيات تعود هذه في عقائدية لا تقال ولكنها تعاش. في الحقيقة اننا نعيش زمنا، القوة فيه هي العقائدية الوحيدة وان لم يجرؤ المستكبرون ان يقولوا ذلك بسبب ادعائهم نظاما انسانيا.

***

لست افهم الميكانيزم الذي يدفع دولة الى الاستعمار او الامبرالية او بسط النفوذ ما من شك ان الشعوب طيبة وانها قادرة في الثقافة والتجارة ان تنمو وتتعاون. الشعوب كلها طيبة وتريد ان تعيش بسلام وان تربي اولادها فيحبوا اولاد الجيران والأصدقاء. ليست الجماعات البشرية هي التي تخوض الحروب. لا احد يريد ان يصبح اولاده قتلة. من يدفع البشر الى الموت؟ هناك مصالح اقتصادية كبرى لا ريب في ذلك. هناك سلاح جديد يجب تصريفه ومنتجات زراعية لا بد من تحويلها الى صناعات في الدول المصنعة. ثم هناك نفط وغاز وما الى ذلك. وتجلس الشركات المتعددة الجنسية فوق هذا كله. ما من شك ان ثمة آلة اقتصادية تفرز آلة حربية وتغطي هذه العملية بالمبادئ الكبرى وحب الوطن فيؤمن البسطاء انهم مهددون ويسيرون الى الذبح متغنين برسالة حضارية. من رفَض العلم والرقي ان لم يصحبها سلاح وإدارة استعمارية؟

لقد افتضحت اخيرا الأكذوبة القائلة ان هذه الدولة او تلك تريد بسط الديموقراطية والحرية عند غيرها بعد ان بات معروفا ان الدول المتمدنة تفرض بفرح كبير انظمة عسكرية هنا وثمة فتمارس ديكتاتورية في بلدها ويستنزف الحكام فيها جماهيرهم ويثرون. الدول الكبرى لا ترفض استمرار الفساد عند حكام الدول الصغيرة التابعة. الظلم بضاعة يصدّرها الكبار وينتفع بها الصغار.

***

يظلم الانسان والدولة والمافيات من الخوف. لا يكذب احد، لا يسرق احد، لا يقتل احد الا من خوف. الظالم لم يحقق نفسه، لم يهنأ بما وفره الله له. الاضطراب من عدم الغنى او من قلته، من عدم الفرح او قلته، من عدم السلام، كل هذا يجعل في نفس الظالم عبودية تنتقم لنفسها باستعباد الأخرين. بكلام آخر يظلم الظالم من كون قلبه لم يشاهد الإله، من كونه في العتمات. يضرب انى أتت ضرباته. ينشر الموت ويعيش منه او يظن ذلك وهكذا يذهب من إيهام الى إيهام.

ليس احد مثل القرآن فهم ذلك. اكثر من ثلاثمئة آية فيها جذر ظَلَم. وليس المجال لاورد المعاني كلها. غير ان ما تفرد به القرآن في حسباني هو فكرة ان الإنسان يظلم نفسه كما في قوله: "ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه" (سورة البقرة، الآية ١٣٢). كذلك: "رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي" (القصص، الآية ١٦). المظلوم الاول هو الظالم. وينفي الكتاب الظلم عن الله فيؤكد: "وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم" (سورة هود، الآية ١٠١). هنا وثمة يربط القرآن الظلم بتعدي حدود الله، بالكفر، بالضلال. ولكن عندي ان ما تميز به هو ان الظالم يؤذي نفسه.

***

ازاء القهر المستولي على التاريخ، على حياتنا اليومية نتوق تاريخا غير هذا ودولا غير هذه ونشتهي الا يجور سيد على مسود وأب على ابنه وحاكم على مواطن وقاضٍ على من تقاضى. نتوق الى ملكوت العدل يسود الظاهر اعني اهل السلطان ويسود الباطن اعني قلوبنا. هل سيكون للملكوت الله صورة في زمان الناس؟

ان الفكر الديني في صميمه مع كونه يرجو العدل في اليوم الأخير الا انه يدعو الى النضال في سبيل العدل الآن وهنا. ان نرفع الظلم عن القلب القهار فيه لعمري الكثير من التطهر. وعندما كان اصدقائي يلومونني لكوني اصدّق كل الناس وتاليا يخدعني الكثير منهم كنت اجيب اني اؤثر ان اخدع تسعا وتسعين مرة من ان اظلم احدا مرة. انه لمؤذ كثيرا للنفس ان تفترض ان ما ينويه مخاطبك هو كذا وكذا ولا يكون الأمر صحيحا.

ومن عدل الله انه يراك كما انت ولا ينسب اليك في دينونته ما ليس فيك. اقل ما يطلب من الإنسان ان يصبح عادلا على صورة الله هذه وان يعدل بين الناس اذا احتكموا اليه ولا يحابي الوجوه. غير ان العدل الكبير لا يستقيم لك ما لم تحب الإخوة جميعا كما الله احبهم. فقط اذا احسوا بمحبوبيتهم يدركون ملكوتا معطاء لا ظلم فيه.